كلية: الآداب

القسم أو الفرع: اللغة العربية

المرحلة: الدراسات العليا/ الدكتوراه

أستاذ المادة: أ.د.ارميض مطر حمد

اسم المادة باللغة العربية: الخطاب النقدي والبلاغي

اسم المادة باللغة الإنكليزية:

اسم المحاضرة السادسة باللغة العربية: الرجوع والاستدراك

اسم المحاضرة السادسة باللغة الإنكليزية:

محتوى المحاضرة السادسة

الرجوع والاستدراك

إنَ الحديث عن التضافر السياقي حديث يشير إلى عمق الصلة بين فنون البلاغة والفنون الأخرى ذات المناحي المختلفة, وذلك لوجود صلة وثيقة بين هذه الفنون أو قل وجود خيط رفيع يربط بينهما, وتتعمق هذه الصلة كلما كان المؤدى واحدًا, وهذا ما لمحته عن طريق فاعلية التداخل بين

فن (الرجوع) و (الإستدراك). الأمر الذي جعل ابن أبي الإصبع المصري يفرد فصلًا تحت عنوان (الرجوع والإستدراك)؛ لأنَ (الإستدراك) " هو طلب التدارك, يقال: تدارك القوم أي لحق آخرهم أولهم, واستدراك الشيء بالشيء, حاول إدراكه به ".[1]

أما المعنى الإصطلاحي, فهو دفع توهم تولد من كلام سابق.[2] بمعنى أنَ سبب التداخل بين هذين الفنيين راجع إلى النفي والإثبات, ففي (الرجوع) نفي لقول سابق, وكذلك (الإستدراك), نفي يعقبه إيجاب بمعنى النظر عما قبله, فاذا كان قبله إيجاب بعده نفي, وهذا الحكم لا يراعي في (بل)؛ لأنَه رجوع عن الأول حتى يصير بمنزلة ما لم يذكر, وما لم تذكره فليس فيه نفي وإثبات.

ولكي تكون الصورة واضحة عن فاعلية التضافر السياقي بين هذين الفنيين, نتأمل قوله تعلى: (وإذ قال إبراهيم رب أرني كيف تحيي الموتى قال أولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي..).[3]

الملاحظ أنَ بؤرة السياق القرآني قائمة على إثبات قدرة الله على إحياء الموتى, لذلك جاء السؤال من لدن الخليل (عليه السلام), وهو سؤال ينطوي على يقين وجداني بقدرة الله على إحياء الموتى, عليه يمكن القول إنَ السياق القرآني لم يكن قائمًا على النفي, أي نفي القدرة الربانية, لذلك جاء (الرجوع) ليدحض فكرة المنكرين بالبعث والإحياء, فكان خطابه عز وجل: (أولم تؤمن) مع العلم أنَ الباري ـ جل علاه ـ يعلم ما يكتن في خاطر إبراهيم (عليه السلام) وفكره ويقينه, فهو خليله, لذلك امتزج (الرجوع) و (الاستدراك), ليؤكد حقيقة السؤال والعناية المرجوة منه, وكان سؤال نبي الله إبراهيم (عليه السلام) مثار دهشة " هل صدر من إبراهيم عن شك أم لا؟ فقال الجمهور : لم يكن إبراهيم (عليه السلام) شاكًا في إحياء الموتى قط وإنَما طلب المعاينة, وذلك أنَ النفوس مستشرقة إلى رؤية مما أخبرت به ".[4]

---

[1] الصحاح: مادة (درك), وينظر لسان العرب, والمصباح المنير, والقاموس المحيط: المادة نفسها.
[2] ينظر التعريفات: ٢١, والكليات: ١٧٥/١, وكشاف اصطلاح الفنون: ٢٧٩/٢
[3] سورة البقرة:٢٦٠
[4] الجامع الاحكام القرآن: ٢٩٧/٣ ــ ٢٩٨

إذن فالسؤال لم يكن على أساس الشك في قدرة الله, إنَما هو من باب المعاينة والإدراك الحسي, بغية إقناع المنكرين لعجائب قدرته. إذ إنَ سؤال الباري ـ عز وجل ـ لإبراهيم (عليه السلام) قائم على تحصل الفائدة للسامعين, لأنَ الله يعلم أن إبراهيم أثبت الناس إيمانًا, لذا جاء السؤال " ليجيب بما أجاب به لما فيه من الفائدة الجليلة للسامعين و (بلى) إيجابًا لما بعد النفي, معناه (بلى) آمنت ولكن لأزيد سكونًا وطمأنينة بمضامة علم الضرورة علم الاستدراك وتظاهر الأدلة أسكن للقلوب وأزيد للبصيرة, فعلم الإستدلال "يجوز معه التشكيك. بخلاف الضرورة".[٥]

فالسؤال والجواب إستدراك مما حصل في العقول من شك في تفكير الآخرين, لأنَ نبي الله إبراهيم (عليه السلام) لا يخامره شك في قدرة خالقه, فهو أثبت الناس يقينًا " ولكنه يريد أن يعلم بالحس كما علم بالقول وبالعيان كما علم بالبرهان... أتقول ذلك وتطلبه وأنت لم تؤمن؟ فإن كنت مؤمنًا كان ذلك غاية المطلوب وإن لم تكن فليس وراء ما علمت من حجة, وإنَ فيه الدليل القاطع والبرهان الساطع, فأجاب إبراهيم ربه: (قال بلى ولكن ليطمئن قلبي) بلى أي: آمنت, فهو نفي لما بعد الهمزة, ونفي عدم الإيمان إثبات للإيمان؛ لأنَ نفي النفي إثبات... وإذا كان إبراهيم مؤمنًا فلماذا طلب ما طلب؟ فقد قال مستدركًا: (ليطمئن قلبي), والإطمئنان السكون والقرار ".[٦]

ومن ذلك قوله تعالى: (وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ).[٧]

يركز السياق القرآني في هاتين الآيتين الكريمتين على مسألتي الخيانة والتقول على الله من لدن اليهود, إذ أباحوا لأنفسهم خيانة الأمانة وزعموا أنَ الله أباح لهم ذلك, لذلك صنفهم الباري ـ عز وجل ـ على صنفين, صنف: يؤدي الأمانة ولا يخونها ولو أودعت عنده أموالا كثيرة, وصنف آخر: لا يؤدي الأمانة بل يخونها ولو أودعت عنده دينارًا واحدًا. هنا تظهر جمالية (الرجوع) في

[٥] مدارك التنزيل: ٢١٥/١, وينظر صفوة التفاسير: ١٤٠/١
[٦] زهرة التفاسير: ٩٦٥/١
[٧] سورة آل عمران: ٧٥ ــ ٧٦

نفي زعمهم وتقولهم على الله, لقوله : (بلى من اوفى), هنا رجوع واستدراك في آن واحد, بغية التوضيح بان ما زعموا لا أساس له من الصحة, وليس كما زعموا, بل عليهم منه إثم " أي إنَما حملهم على الخيانة زعمهم أنَ الله أباح لهم أموال الأميين ـ يعني العرب ـ روي أنَ اليهود قالوا: (نحن ابناء الله واحباه)[٨], والخلق لنا عبيد, فلا سبيل لأحد علينا إذا أكلنا أموال عبيدنا, وقيل: إنَهم قالوا إنَ الله أباح لنا مال من خالف ديننا ".[٩]

لذلك جاء (الرجوع) مع (الإستدراك), ليؤكد حقيقة الأمور ووضعها في نصابها الحقيقي؛ لأنَ هذه الادعاءات لا تصلح لهم, وهذا يعدُ ضلالا وتدليسًا, فجاء الرد (بلى) أي عليهم سبيل وحجة, وهنا (بلى) موجبة مما نفوه, إذ سبقت بنفي وهو (ليس), ثم قال: (من اتقى), فجاءت هذه الجملة مقررة للجملة التي سدت (بلى) مسدها, أي (بلى) هنا " إثبات لما نفوه من السبيل عليهم في الأميين, أي بلى عليهم سبيل فيهم ".[١٠]

تكمن جمالية التضافر السياقي في حشد عدد من الأدوات, بغية توضيح فكرة النص وإيصالها إلى المتلقي من دون لبس, بدليل أَن الباري ـ عز وجل ـ قدم (من اهل الكتاب من ان تأمنه بقنطار), بغية إنصاف هذه الطائفة من اليهود التي آثرت الأمانة على الرغم من إباحة دينهم لخيانتها, لذلك يقول الطاهر بن عاشور (ت ١٣٩٣هـ): " وتقديم المسند في قوله: (ومن أهل الكتاب..), في الموضوعين

للتعجب من مضمون إمكان الخيانة ووجود العذر له في عادة أهل دينه, وفي الثاني للتعجب من أن يكون الخون خلقًا لمتبع كتاب من كتب الله, ثم يزيد التعجب عند قوله: (ذلك بانهم قالوا), فيكسب المسند إليهما زيادة عجب ".[١١]

---

[٨] سورة المائدة: ١٨
[٩] صفوة التفاسير: ١٧٩/١ ــ ١٨٠
[١٠] ينظر التفسير المنير: ٢٦٤/٣
[١١] التحرير والتنوير: ٢٨٥/٣

ومن ذلك قوله تعالى: (إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنْزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰ ۚ إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ).[١٢]

فتجسد في هاتين الآيتين العناية الربانية لعباده المخلصين, وآية ذلك توجيه الخطاب لعباده المتصدين لقتال الأعداء في يوم بدر, إذ إنَهم كانوا قلة في العدد والعدة قياسًا لأعدائهم, لذا تظهر رعاية حال المخاطب بضرورة إدخال الطمأنينة والسكينة في قلوبهم بانَ النصر آت لا محالة. لذا جاء فن (الرجوع) متضافرًا مع الإستدراك, لتأكيد نصر المؤمنين في بدر, بعد أن أنكروا كفاية الامداد, فجاء الإستدراك و (بلى), فدخلت أداة الإستفهام على حرف النفي (لن) على سبيل الإنكار, والمعنى: إنكار عدم كفاية الإمداد بهذا العدد وجيء بـ (لن) بدل (لا) لتأكيد النفي أشعارًا بأنَهم كانوا لقلتهم وضعفهم وكثرة عدوهم ".[١٣]

عليه فإنَ الإيجاب بعد السلب أضفى على السياق القرآني طابعًا لحسن الرعاية الربانية وتكفل الباري لحماية عباده المخلصين ونصرتهم, لذلك قال ابن عطية (ت ٥٤٢هـ): " ألن يكفيكم, تقرير على إعتقادهم في هذا العدد من الملائكة, ومن حيث

الأمر بينًا في نفسه, إنَ الملائكة كافية بادر المتكلم إلى الجواب ليبين ما يستأنف من قوله عليه, فقال: (بلى) وهي جواب المقررين, وهذا يحسن في الأمور البيَنة التي لا محيد في جوابها ".[١٤]

الملاحظ في السياق القرآني أنَ ذكر العدد من الملائكة أبان الرازي (ت ٦٠٦هـ) فيه ثلاث حجج:

الحجة الاولى: أنَ الله تعالى قال: (وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)[١٥], إذ يقول للمؤمنين: (ألن يكفيكم) الله كذا وكذا, فظاهر الكلام يقتضي تحقق النصر عند قول الرسول (ﷺ) للمؤمنين هذا الكلام.

---

[١٢] سورة آل عمران: ١٢٤ ــ ١٢٥
[١٣] الكشاف :١/٤١٠
[١٤] المحرر الوجيز: ١/٣٠

الحجة الثانية: أنَ قلة العدو والعدد كانت ببدر أكثر وكان الإحتياج إلى تقوية القلب في ذلك اليوم أكثر, فكان هدف هذا الكلام إلى ذلك اليوم أولى.

الحجة الثالثة: أنَ الوعد بإنزال ثلاثة آلاف من الملائكة كان مطلقا غير مشروط بشرط, فوجب أن يحصل, وهو إنَما حصل يوم بدر لا يوم أحد.. وبمجرد الإنزال لا يحصل الإمداد بل لابد من الإعانة, وقد حصلت يوم بدر ولم تحصل يوم أحد.[١٦]

ومما تم ملاحظته في هذا السياق إيثار بعض المفردات القرآنية التي ساهمت في تأكيد المعنى, لا سيما في قوله تعالى: (ويأتوكم من فورهم), إذ أبان المفسرون أنَ كلمة (من فورهم) إستعارة مأخوذة من فور القدر.[١٧]

وقد أبان الطاهر بن عاشور أنَ معنى (من فورهم) " المبادرة السريعة, فإنَ الفور المبادرة في الفعل, وإضافة الفور إلى ضمير الآيتين لإفادة اختصاص الفور بهم, أي شدة اتصالهم به حتى صار يعرف بأنَه فورهم, ومن هذا قولهم: خرج من فوره ".[١٨]

تتضح جمالية التضافر السياقي أيضا في تقديم الصبر على التقوى, في قوله تعالى: (ان تصبروا وتتقوا)., إذ اقتضى المقام هذا التقديم؛ لأنَ الموقف كان في جهاد المؤمنين في معركة بدر, وهذا يتطلب منهم الصبر على الشدائد والمحن التي يمرون بها في أثناء مقارعة عدوهم, كون هذه المعركة مصيرية فيها ثبات المسلمين وتقوية عزائمهم ثم الإلتزام بمبدأ التقوى, كي يكون الصبر لائقا بالمجاهدين.[١٩]

---

[١٥] سورة آل عمران: ١٢٣
[١٦] التفسير الكبير: ٣٥/٨
[١٧] ينظر تفسير القرآن: العز بن عبد السلام ٢١٢/١, ينظر الجواهر الحسان: ١٠٢/٢: روح المعاني: ٢٦٠/٢, تفسير الماوردي: ٤٢١/١, التفسير البسيط: ٤٧/٢٢
[١٨] التحرير والتنوير: ٧٦/٤
[١٩] ينظر البلاغة القرآنية في آيات صفات المؤمنين: ٣٩١/١

ومن ذلك قوله تعالى: (وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِالْحَقِّ ۚ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ).[٢٠]

المتأمل في سياق هذه الآية المباركة, يجد بؤرة السياق تكمن في إنكار الكفار البعث والنشور, وآية ذلك قولهم: (وقالوا ان هي الا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين).[٢١] الأمر الذي اقتضى نقض الفكرة التي آمنوا بها, لخطابهم الباري ـ عز وجل ـ : (أليس هذا بالحق). بمعنى (أليس المعاد بحق؟ والهمزة للتقريع على التكذيب).[٢٢] لذلك حصل التضافر البلاغي بين (الرجوع) و (الإستدراك) لقوله تعالى: (قالوا بلى), أي أنَهم رجعوا عن كلامهم السابق ونقضوه بعد أن تمادوا وأصروا على عدم وجود البعث والنشور.

يقول ابن عطية: " وبلى, هي التي تقتضي الإقرار بما استفهم عنه منفيًا ولا تقتضي نفيه وجحده و (نعم) تصلح للإقرار به... وتصلح (نعم) مجحدة فلذلك لا تستعمل ".[٢٣]

وقوله تعالى: (لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ..).[٢٤]

يكمن (الرجوع) في نفي أن يكون " فعل الخيروعمل الصالحات محصورًا في أن يتوجه الإنسان في صلاته جهة المشرق والمغرب ".[٢٥]

نفهم من ذلك أنَ هناك واجبات جسام على المرء ينبغي فعلها, كي يكون عمله خالصًا لوجهه الكريم, التوجه الى الصلاة ينبغي أن يكون مقرونًا بجملة أمور حددها الباري ـ عز وجل ـ في سياق هذه الآية المباركة, لذا نلاحظ فعالية تضافر (الرجوع) مع (الإستدراك) في قوله: (ولكن البر), بغية لفت نظر الإنسان إلى حقيقة الإسلام, فلم تكن التولية التي يوليها اليهود والنصارى

---

[٢٠] سورة الانعام: ٣٠
[٢١] سورة الانعام: ٢٩
[٢٢] صفوة التفاسير: ٣٢٩/١
[٢٣] المحرر الوجيز: ١٧٤/٥
[٢٤] سورة البقرة: ١٧٧
[٢٥] صفوة التفاسير: ١٩٩/١

سبيلًا للحكم بنقاء الإنسان وإخلاصه لله, بل ينبغي أن تكون التولية مقرونة بفعل الخير وعمل المعروف, ولعل السبب في هذا التحديد " لأنَ كل فريق يدعي أن البر هذا, فيجب أن يكون الرد موافقًا لدعواهم, وما ذلك إلا بكون البر اسمًا, كما يتضح عنه جعله مخبرًا عنه في الإستدراك بقوله: (ولكن البر من آمن) ".[٢٦]

إنَ تضافر (الرجوع) مع (الإستدراك) أفضى إلى حقيقة إيمان الإنسان, لأنَ " الخطاب لليهود والنصارى, لأنَهم اختلفوا في التوجه والتولي, فاليهود إلى بيت المقدس, والنصارى إلى مطلع الشمس, وتكلموا في تحويل القبلة, وفضلَت كل فرقة تولية, فقيل لهم: ليس البر ما أنتم فيه, ولكن البر من آمن بالله ".[٢٧]

فالملاحظ في سياق هذه الآية تقدم صفة الإيمان وهي صفة روحية يتحلى بها الإنسان, إذ قدم الباري ـ عز وجل ـ هذه الصفة على أعمال الجوارح من صلاة وزكاة؛ لأنَ أعمال القلوب المؤمنة تفضي إلى صدق في أعمال الجوارح, إذ إنَ أعمال الجوارح لا قيمة لها ما لم تكن مقرونة بصدق الإيمان, بل ستكون مجرد أفعال لا يرجى خيرها. عليه جاءت الأداة (لكن) للإستدراك بعد نفي, إذ نفى أولا كون البِر هو توليه الوجه تجاه هاتين الجهتين, ثم استدرك وأكد أنَ البر هو الإيمان بالله.[٢٨]

كل ذلك أبان عنه (الرجوع) و (الإستدراك), إذ ساهما في إيضاح حقيقة البِر وأبطلا إرجاف اليهود والنصارى في أمر تحويل القبلة؛ لأنَهم ظنوا أنَ الإيمان الحقيقي في تولية الوجه نحو هاتين القبلتين, لذلك جاء الرد موافقًا لجنس العمل.

ومن ذلك قوله تعالى: (يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ ۖ قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ).[٢٩]

---

[٢٦] ارشاد العقل السليم: ٢٣٤/١

[٢٧] ينظر البحر المحيط: ٥/٢, الكشاف: ٢١٧/١

[٢٨] ينظر م.ن: ٥/٢, الكشف عن وجوه القراءات السبع: ٢٥٦/١ ــ ٢٥٧

[٢٩] سورة الحديد: ١٤

المتأمل في سياق هذه الآية المباركة يلحظ فاعلية (الرجوع) عندما أثبت كون المنافقين مع المؤمنين في الحياة الدنيا, يصلون معهم, ويصدقون معهم, ويحضرون معهم صلاة الجمعة, ولكن الباري ـ عز وجل ـ حكاية على لسان المؤمنين أكد هذا الوجود الظاهر, ولكن المنافقين نقضوا الإيمان الحقيقي الكامن في نفوسهم, إذ إنَ ما يفعلون من أعمال الجوارح لمجرد الرياء والتظاهر, فجاء الإستدراك بـ (بلى), ليؤكد هذا الوجود الظاهر القائم على التربص للمؤمنين والتشكيك في أمر الدين. ساهم الإستفهام الذي خرج إلى معنى التقرير في الكشف عن حقيقة مناشدة المنافقين وتقرير مصيرهم وحياتهم القائمة على الزيف والإدعاء.

أبان الماتريدي (ت ٣٣٣هـ) أنَ قول أهل النفاق: (ألم نكن معكم). هو من باب إغراء المؤمنين, كما كانوا يفعلون ذلك في الدنيا رياءً ونفاقًا, إذ قال عنهم الباري ـ عز وجل ـ : (يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ ۖ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ ۚ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ)[٣٠], لذلك فإنَ قولهم: (ألم نكن معكم) يخرج على تغريرهم إياهم.[٣١] كذلك وجد الماتريدي إشكالية في قول المؤمنين: (بلى), وقد علموا أنَ المنافقين لم يكونوا معهم في الدنيا, لذلك وجه ذلك في أمور:

أولًا: جائز أن يكون جوابهم خرج لأولئك على ما عرفوا من خطابهم ومرادهم, فأجابوهم على ذلك.

ثانيًا: أو أن يكون قولهم: (بلى) إن كنتم تقولون بإنا معكم, ولكن لم تكونوا معنا.

ثالثًا: أو يخرج جوابهم على ظاهر ما يرون في أنفسهم الموافقة دون الحقيقة.[٣٢]

نفهم من ذلك أنَ فاعلية (الرجوع) المقترنة بالإستدراك أبانت عن حقيقة هؤلاء المنافقين وحالهم القائمة على النفاق والرياء, إذ إنَ هاتين الصفتين لازمتهما في الدنيا ولم تفارقهما يوم الحساب, وكأنَ هناك جدارًا فاصلًا بين المنافقين والمؤمنين, فنظروا إلى النعيم الذي حظي به المؤمنون وحالتهم يائسة وسوء المنزلة والعذاب الواقع بهم, دفعهم ذلك كله إلى مناداة المؤمنين، بغية

---

[٣٠] سورة المجادلة: ١٨
[٣١] ينظر تأويلات اهل السنة: ٥٢٢/٩
[٣٢] تنظر م.ن: ٥٢٢/٩

إغرائهم والإشفاق عليهم أملاً في تحقيق ما يتمنوه مع يقينهم أنَ ما يصبون إليه لا يتحقق, فهو بعيد المنال, ولكن من باب إدخال الأنس في نفوسهم.

ومن ذلك قوله تعالى: (يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ ۗ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَىٰ ۗ وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ).[٣٣]

يكمن (الرجوع) في قوله تعالى: (وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا), فهو نقض لعادة كانت سائدة في الجاهلية, فهم في سابق عهدهم يحلون ما حرم الله؛ بسبب جهلهم بأمور الدين, إلا أنَ القرآن وضع حدودًا لا يمكن للإنسان أن يتخطاها, وهي اجتناب المحارم, لذلك جاء الإستدراك في قوله تعالى: (ولكن البر) من باب التوكيد ولفت نظر الإنسان إلى حقيقة الفعل الذي يقربه من الله, وهو اجتناب ما حرمه الله والعمل بنواهيه, لأنَ دخول البيوت من ظهورها أمر جب عنه الإسلام ونهى عنه, كونه يفضي إلى الكشف عما ينبغي أن يكون مستورًا, لذلك أكد الباري ـ عز وجل ـ البر في أمرين في هذا السياق هما: التقوى, فضلًا عن دخول البيوت من أبوابها.

هنا تبرز فاعلية التضافر السياقي في الكناية اللطيفة في قوله تعالى: (تأتوا البيوت من ظهورها), الكناية عن الفحش, بعكس دخول البيوت من أبوابها, وكما قال سراج الدين الدمشقي (ت ٧٧٥هـ): " هنا كناية عن الإلتزام بحدود الله "[٣٤]

الملاحظ أيضا في سياق هذه الآية الكريمة, هو تقديم التقوى على اتيان البيوت؛ لأنَ الإنسان الذي يتحلى بالتقوى ومخافة الله لا يمكنه أن يتعدى على حدود الله, أو يحلل ما حرمه, فهي السبيل المفضي إلى اجتناب المحارم.

---

[٣٣] سورة البقرة: ١٨٩

[٣٤] اللباب في علوم الكتاب: ٣٣٩/٣

ولعل السبب في هذا التوجيه الرباني أنَ الأنصار في جاهليتهم كانوا " إذا أحرموا لم يدخلوا دارًا ولا فسطاطًا من بابه وإنَما يدخلون ويخرجون من نقب أو فرجة وراءها ويعدون ذلك برًا, فبين لهم أنَه ليس ببر, فقيل: (ولكن البر من اتقى) أي بر من اتقى المحارم والشهوات ".[٣٥]

هنا تكمن فاعلية الإستدراك في التوجيه الصحيح لسلوك الإنسان, إذ إنَ الجصاص (ت ٣٧٠هـ) قال: " أو قيل إنَه مثل ضربه الله لهم بأن يأتوا البر من وجهه وهو الوجه الذي أمر الله تعالى به وليس يمتنع أن يكون مراد الله تعالى به جميع ذلك, فيكون منه بيان أنَ إتيان البيوت من ظهورها ليس يقربه إلى الله تعالى ولا هو مما شرعه ولا ندب إليه, ويكون مع ذلك مثلًا أرشد به إلى أن يأتي الأمور من مأتاها الذي أمر الله تعالى به وندب إليه ".[٣٦]

ومن ذلك أيضًا قوله تعالى: (وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ).[٣٧]

المتأمل في سياق هذه الآية الماركة يجد فاعلية (الرجوع) تتبلور في قول خزنة جهنم للكافرين: (ألم يأتكم رسل منكم) بجامع التقريع والتوبيخ, فيقروا بذلك, ولكنهم صموا آذانهم واستغشوا ثيابهم وتنكروا لفعل الخير, بمعنى أنَهم اعترفوا بذنبهم وقيام الحجة عليهم. فترى فاعلية السياق في الإستفهام التقريري في قوله: (ألم يأتكم) ليقرر حالة الشقاء والعناد والتعالي على الرسل الذين أنذرونهم وأقاموا الحجة عليهم.

هذا التضافر السياقي كله في صالح إثبات حقيقة هؤلاء الكفار, ومما بعضد ذلك كله الإستدراك بـ (بلى) التي جاءت إيجابًا لما بعد النفي, بغية لفت نظر الكفار الذين أصروا على عنادهم واستكبارهم, إن ذلك كله لا ينفعهم يوم الحساب, الأمر دفع خزنة جهنم إلى استجوابهم وتقريعهم، فهم مهانون وغير مكرمين, بدليل قوله تعالى: (فتحت أبوابها)؛ لأنَ الأبواب تكون

[٣٥] ارشاد العقل السليم: ٢٠٣/١٠, معاني القرآن, الاخفش: ١٦١/١, مجاز القرآن: ٦٨, معاني القرآن واعرابه: ٢٦٣/١, التبيان: ١٤٣/١, انوار التنزيل: ١٢٧/١
[٣٦] احكام القرآن: ٣١٩, وينظر مباحث في التفسير الموضوعي: ٦١
[٣٧] سورة الزمر: ٧١

مشرعة احتفاء بالقادمين إليها, إذ إنَ أهل الجنة عندما أقبلوا قيل: (وفتحت أبوابها) إحتفاء بهم وإكرامًا لهم, بمعنى أنَ أبواب جهنم موصودة لا تفتح إلا إلى داخل فيها, بعكس أبواب الجنة, فهي مفتحة, وهذا ما أكده الرازي قائلا: " سوق الذين كفروا إلى جهنم يكون بالعنف والدفع, والدليل قوله تعالى: (يوم يدعون إلى نار جهنم دعا)[٣٨] أي يدفعون دفعًا.. ويدل على قوله تعالى: (وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا)[٣٩] ".[٤٠]

ومما تم ملاحظته في سياق هذه الآية المباركة إيثار لفظة (زمرًا) للإشارة إلى السوق على أفواج متفرقة بعضها في إثر بعض ، فبيَن الله تعالى أنَهم يساقون إلى جهنم, فإذا جاءوها فتحت أبوابها, وهذا يدل على أنَ أبواب جهنم إنَما تفتح عند وصول أولئك إليها, فإذا دخلوا جهنم... واستعمال لفظ اليوم والأيام في أوقات الشدة مستفيض "[٤١], ويستطرد الرازي في بيان قوله تعالى على لسان الكفار: (حقت كلمة العذاب), فذكر مسألتين:

المسألة الاولى: تقدير الكلام أنَه حقت علينا كلمة العذاب, ومن حقت عليه كلمة العذاب, فكيف يمكنه الخلاص من العذاب.

المسألة الثانية: دلت الآية على أنَه لا وجوب قبل مجيء الشرع؛ لأنَ الملائكة بينوا أنَه ما بقي لهم علة ولا عذر بعد مجيء الأنبياء (عليهم السلام), ولو لم يكن مجيء الأنبياء شرطًا في استحقاق العذاب, لما بقي في هذا الكلام فائدة.[٤٢]

وبيَن أبو حيان (ت ٧٤٥هـ) سبب حذف (الواو) في قوله: (فتحت) " ودل ذلك على أنَه لا يفتح إلا إذا جاءت كسائر أبواب السجون, فإنَها لا تزال مغلقة حتى يأتي أصحاب الجرائم الذين يسجنون فيها, فيفتح ثم يغلق عليهم ".[٤٣]

---

[٣٨] سورة الطور: ١٣
[٣٩] سورة مريم: ٨٦
[٤٠] التفسير الكبير: ٤٧٨/٢٧
[٤١] التفسير الكبير: ٤٧٨/٢٧
[٤٢] م.ن: ٤٧٨/٢٧, ينظر البحر المديد: ١٠٤/٥
[٤٣] البحر المحيط: ٢٢٤/٩, وينظر روح المعاني: ٢٨٦/١٢

وقوله تعالى: (الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ ۙ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ).[٤٤]

المتأمل في سياق هذه الآية المباركة, يجد فاعلية (الرجوع) تكمن في نفي عمل السوء, إلا أنَ الله أثبت كذبهم في قوله: (إنَ الله عليم بما كنتم تعملون), وفي ذلك إشارة إلى كذبهم, ومما يؤكد ذلك الاستدراك الحاصل في قوله تعالى: (بلى) الذي جاء ليؤكد كذبهم, والتقدير: (بلى قد كنتم تعملون السوء), فأثبتت (بلى) ما نفوه عن أنفسهم.

وقد أبان ابن عطية أنَ قوله تعالى: (ما كنا نعمل من سوء) يحتمل وجهتين:

أحدهما: أنَهم كذبوا وقصدوا الكذب اعتصاما منهم به.

الآخر: هم أخبروا عن أنفسهم أنَهم لم يكونوا يعملون السوء, وذلك يعدُ إخبارًا عن ظنهم بأنفسهم, وهو افتراء وكذب في ذاته؛ ولذلك كان الرد عليهم في الوجهتين بـ (بلى).[٤٥]

نفهم من ذلك أنَ الكذب راجع إليهم سواء أكان مقصودًا في الإخبار عنه, لو لم يكن مقصودًا, فمآل الأمر أنَ الله لا يخفى عليه شيء, لذلك جاء الرد مناسبًا لكل ذلك.

هنا تكمن فاعلية التضافر السياقي في بيان حقيقة الكفرة ساعة نزول الموت بساحتهم, بدليل أنَ الطاهر بن عاشور وجه ذلك قائلا: " إنَ القرينة ظاهرة على أنَ قوله تعالى: (الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ) ليست من مقول الذين أوتوا العلم يوم القيامة, إذ لا مناسبة لأ يعرف الكافرون يوم القيامة بأنهم الذين تتوفاهم الملائكة ".[٤٦] ولم يكتف الطاهر في بيان حقيقة الكفرة, بل أثبت " أنَ صيغة المضارع في قوله: (تتوفاهم) قريبة من التصريح من أنَ هذا التوفي محكي في حال حصوله وهم يوم القيامة مضت وفاتهم, ولا فائدة أخرى في ذكر يومئذ, فالوجه أن يكون

[٤٤] سورة النحل: ٢٨
[٤٥] ينظر المحرر الوجيز: ٣٨٩/٣
[٤٦] التحرير والتنوير: ١٣٨/١٤

هذا كلامًا مستأنفًا ".[٤٧] بمعنى أنَ الخطاب الرباني موجه للكفار والجاحدين لأنعم الله في كل زمان ومكان, إذ إنَ هذا الإنكار متأت من خشيتهم من العذاب المحصل يوم القيامة؛ لأنَهم يدركون تمامًا حقيقة ما كانوا يفعلونه من فحش في الدنيا, إلا أنَهم يحاولون إغراء أنفسهم بأنهم لم يفعلوا سوءًا, وهي كلها أماني لا طائل منها؛ لأنَ الله عالم بهم.

وقوله تعالى: (أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ بَلَىٰ قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ).[٤٨]

تجد جمالية (الرجوع) تكمن في قوله تعالى: (بلى قد جاءتك آياتي فكذبت بها واستكبرت), فقد نقض الباري ـ عز وجل ـ دعواتهم السابقة جميعًا قبل حصول العذاب. وآية ذلك أنَ الله نقض دعوتهم من أنَهم لم يهدهم الله إلى الحق, فلو هداهم لأطاعوه وكانوا عبادًا صالحين, وهذا محض افتراء, ونقض أيضًا دعوتهم من أنَهم لو أعيدوا مرة أخرى إلى الحياة لعملوافي طاعة الله, وأحسنوا سيرتهم, إلا أنَ الإستدراك جاء ردًا على أباطيلهم كلها, في قوله: (بلى قد جاءتك آياتي).

قال الصابوني (ت ١٤٤٢هـ): " إنَ الكافر أولًا يتحسر, ثم يحتج بحجج واهية, ثم يتمنى الرجوع إلى الدنيا, ولو رد لعاد إلى ضلاله, كما قال تعالى: (وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ)[٤٩] ".[٥٠]

الملاحظ أنَ هناك ردودًا حصلت بين ابن عطية وأبي حيان حول الجواب بـ (بلى), اذ رأى ابن عطية أنَ (بلى) من حقها أن تجيء بعد النفي عليه تقرير[٥١], إلا أنَ أبا حيان يرى أنَه " ليس حق (بلى) ما ذكر, بل حقها أن تكون جواب نفي ثم حمل التقرير على النفي, ولذلك لا يحمله عليه بعض العرب, وقع ذلك أيضًا في كتاب سيبويه نفسه, أن أجاب التقرير بـ (نعم) اتباعا لبعض العرب ".[٥٢] وهذا يعدُ مخالفًا لما يراه ابن عطية من أنَ (بلى) جواب بعد النفي, بعكس (نعم) فإنَها تكون جوابًا

[٤٧] التحرير والتنوير: ١٣٨/١٤
[٤٨] سورة الزمر: ٥٧, ٥٨, ٥٩
[٤٩] سورة الانعام: ٢٨, صفوة التفاسير: ١٧٣/٣
[٥٠] ينظر المحرر الوجيز: ٦٠٦/٤
[٥١] البحر المحيط: ٢١٤/٩
[٥٢] الكشاف: ١٣٨/٤, ينظر اعراب القرآن – النحاس: ١٤/٤, البرهان في علوم القرآن: ٣٦٤/٤, غرائب القرآن ورغائب الفرقان: ٤/٦

بعد إيجاب, بدليل أنَ قوله تعالى: (بَلَىٰ قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ.), جواب لقوله: (لو أنَ الله هداني لكنت من المتقين). ويرى العلماء " الجواب بـ (بلى), وهي إنَما تأتي في جواب النفي؛ لأنَ المعنى: ما هداني الله وما كنت من المتقين, فقيل له: بل جاءتك آياتي فكذبت بها واستكبرت, فلولا أنَ معنى الكلام النفي لما وقعت (بلى) في جوابه ".[٥٣]

ومما تجدر الإشارة إليه أنَ التضافر السياقي أبان عما يكمن في النفس الجاحدة, بدليل ورود الخطاب بصيغة التمني (لو) وهو مجرد أماني غير مطموع في حصولها, وهو اعتراف هذه النفس " بأنَها علمت أنَها كانت من المسيئين,

وقد حكى كلام النفس في ذلك الوقت على ترتيبه الطبيعي في جولاته في الخاطر بالإبتداء بالتحسر على ما وقعت فيه نفسه, ثم بالإعتذار والتنصل طمعًا أن ينجيها ذلك, ثم يتمنى أن تعود إلى الدنيا لتعمل الإحسان..... فهذا الترتيب هو أحكم ترتيب, لو رتب الكلام على خلافه لكانت الإشارة إلى تولد هذه المعاني في الخاطر".[٥٤]

وقوله تعالى: (وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِنَ الْعَذَابِ ﴿٤٩﴾ قَالُوا أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ ۖ قَالُوا بَلَىٰ ۚ قَالُوا فَادْعُوا ۗ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ).[٥٥]

يكمن (الرجوع) في قوله تعالى: (وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ), بعد أن طلبوا من خزنة جهنم أن يدعو لهم, فجاء الرد بعدم جدوى دعاء الكافرين, فهو لا يستجاب ولا يسمع؛ لذلك جاء الإستدراك بـ (بلى) بعد النفي (أولم تك), وهذا الإستفهام لتقرير حال الكفار في أثناء طغيانهم وبعدهم عن الله, وحالتهم يوم العرض وطلب الصفح عما اقترفوه, فترى جمالية التكرار (قال), القائم على الإلحاح, بغية الخلاص من العذاب.

---

[٥٣] اين الهامش؟؟
[٥٤] التحرير والتنوير: ٤٧/٢٤
[٥٥] سورة غافر: ٤٩ ــ ٥٠

ومما تجدر الإشارة هو دقة اختيار المفردة القرآنية, لاسيما في تكرار الفعل (قال), يشير النص القرآني إلى تباين الخطاب القرآني وتفاوت النداء, فعندما قال الكفار, فهو من باب الإستغاثة للنجاة من العذاب, أما قول خزنة النار وزبانيتها, فهو من باب التوبيخ والتقريع, فضلًا عن التقرير, وهذا ما أكده الطبري (ت ٣١٠هـ) قائلًا " وقال أهل جهنم لخزنتها وقوامها, إستغاثة بهم من عظم ما هم فيه من البلاء, ورجاء أن يجدوا من عندهم فرجًا (أدعوا لنا), (يخفف عنا يومًا) واحدًا, يعني قدر يوم واحد من أيام الدنيا من العذاب ".[٥٦]

والملاحظ أنَ الباري ـ عز وجل ـ ذكر على لسان الكفار (يخفف عنا يوما), وفي ذلك إشارة إلى شدة العذاب الواقع بهم, كأنَهم في قعر جهنم, إذ إنَ ذكر جهنم ـ بحد ذاته ـ يحمل في طياته تهويلًا فظيعًا.[٥٧] فهي تثير في النفوس مخاوف وتصورات في الذهن ومشاهد مرعبة تبعث على الخوف والقلق. لذا فإنَ التضافر السياقي ساهم في ترسيخ هذه المفاهيم في ذهن القارئ المتدبر, بدليل أنَك لو تأملت السياق القرآني, لوجدته يؤثر الاسم الموصول (الذين), للإشارة إلى أنَ الإستغاثة لم تكن محصورة بفئة معينة من الكفار, بل هي استغاثة من لدن الجميع, (أدعوا ربكم), محاولة منهم استمالة هؤلاء الخزنة وإغراءهم بطلب التخفيف ولو ليوم واحد " فراجعتهم الخزنة على معنى التوبيخ لهم والتقرير (ألم تك تأتيكم رسلكم بالبينات), فأقر الكفار عند ذلك وقالوا: (بلى) أي قد كان ذلك, فقال لهم الخزنة عند ذلك: فادعوا أنتم اذا, وعلى هذا المعنى الهزء بهم, فادعوا أيَها الكافرون الذين لا معنى لدعائهم, وقالت فرقة: (وما دعاء الكافرين إلا في ضلال)".[٥٨]

وقوله تعالى: (وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ ۙ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ ۚ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا...).[٥٩]

ان المتفحص في سياق هذه الآية المباركة, يجد (الرجوع) واضحًا وجليًا في إنكار المشركين البعث بعد الممات, فنقض الله قسمهم في إثبات وعده, فجاء الإستدراك بـ (بلى) معضدًا

---

[٥٦] جامع البيان: ٣٩٩/٢١, وينظر مدارك التنزيل: ٢١٥/٣
[٥٧] ينظر انوار التنزيل: ٦٠/٥
[٥٨] المحرر الوجيز: ٥٦٣/٤, وينظر السراج المنير: ١٧٧/٢, وينظر التفسير الواضح: ٤٠٦/٣, وينظر وظيفة الصورة الفنية من القرآن: ٣٦.
[٥٩] سورة النحل: ٢٨

هذا الوعد ومنكرًا لقسم المشركين, فجاءت (بلى) بعد النفي (لا يبعث), إلا أنَ الباري ـ عز وجل ـ أثبت ذلك في قوله: (بلى وعدا عليه حقا), والله لا يخلف وعده.

فصل الرازي في مسألة إنكار البعث, وذكر مسالتين:

المسألة الاولى: أنَ هذا هو الشبهة الرابعة لمنكري النبوة, فقالوا القول بالبعث والحشر والنشر باطل, فكان القول بالنبوة باطلا.

أما المقام الاول: فتقريره أنَ الإنسان ليس إلا هذه البنية المخصوصة, فإذا مات وتفرقت أجزاؤه وبطل ذلك المزاج والاعتدال امتنع عوده بعينه؛ لأنَ الشيء إذا عدم فقد فني, فالذي يعود يجب أن يكون شيئًا مغايرًا فلا يكون عينه.

وأما المقام الثاني: فهو أنَه لما أنكروا البعث, وهذا تحصيل حاصل إنكار النبوة أيضًا.

المسالة الثانية: قوله: (وأقسموا بالله جهد أيمانهم) حكاية عن الذين أشركوا, لذا فإنَ الرد بـ (بلى) إثبات لما بعد النفي, أي بلى يبعثهم.[٦٠]

وتنبه الطاهر بن عاشور إلى مسألة العدول عن (الموتى) إلى (من يموت) بقصد " إيذان الصلة بتعليل نفي البعث, فإنَ الصلة أقوى دلالة على التعليل من دلالة المشتق.. فهم جعلوا الإضمحلال منافيًا لإعادة الحياة... و (بلى) حرف لإبطال النفي في الخبر والإستفهام, أي يبعثهم الله, وانتصب وعدًا على المفعول المطلق مؤكدًا لما دل عليه حرف الإبطال من حصول البعث بعد الموت ".[٦١]

الجدير بالذكر أنَ المتأمل في سياق هذه الآية يجد التضافر السياقي واضحًا في الإستعارة المكنية عندما " شبه الوعد الذي وعده الله بمحض إرادته واختباره بالحق الواجب عليه ورمز إليه بحرف الإستعلاء "[٦٢], فضلًا عن الإستدراك الناشئ " عن جعله وعدًا على الله حقًا, إذ يتوهم السامع أنَ

---

[٦٠] ينظر التفسير الكبير: ٢٠٦/٢٠ ــ ٢٠٧ , وينظر زاد المسير في علم التفسير: ٢٥٩/٢
[٦١] التحرير والتنوير: ١٥٤/١٤
[٦٢] التحرير والتنوير: ١٥٤/٤

مثل ذلك لا يجهله أحد , فجاء الإستدراك لرفع هذا التوهم؛ لأنَ جملة (وعدًا عليه حقا) تقتضي إمكان وقوعه والناس يستبعدون ذلك ".[٦٣]

وقوله تعالى: (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ ۖ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ ۖ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ).[٦٤]

فبعد أن أنكر المشركون قيام الساعة نقض الباري ـ عزَ وجل ـ معتقدهم بتأكيد قيام الساعة بالقسم ذاته الإلهية, وهذا القسم توكيد لا رجعة فيه, بغية إشعار المشركين بافترائهم على الله وسوء ظنهم مما

أثبته الله في كتابه العزيز, لذا جاء (الرجوع) مقرونًا بالإستدراك و (بلى) بعد النفي (لا تأتينا), لأجل الإيجاب بحصول القيامة, إذ إنَ المشركين نفوا البعث وأنكروا قيام الساعة, فاقتضى المقام أن يكون الرد (بلى وربي) على سبيل التوبيخ والسخرية و " أوجب ما بعد النفي بـ (بلى) على المعنى، أن ليس في الأمر إلا إتيانها, ثم أعيد إيجابه مؤكدًا بما هو العناية في التوكيد القسمي إمدادًا بما اتبع المقسم به من الوصف بما وصف به ".[٦٥]

إذ إنَ شدة إنكار المشركين أوجب أن يكون القسم على هذه الشاكلة " فحين أقسم باسمه بما يرجع إلى عالم الغيب, وأنَه لا يفوت علمه شيء من الخفيات, واندرج تحته إحاطته بوقت قيام الساعة, فجاء ما يطلبه من وجه الاختصاص مجيئًا واضحًا ".[٦٦]

ومما تجدر الإشارة إليه أنَ مجيء القسم المؤكد (بلى وربي), بغية توكيد ما تم نقضه من معتقداتهم وما تم استدراكه على كلامهم, وفي ذلك دحض لما قالوه ونقض لما أثبتوه من عدم مجيء الساعة, ولعل السبب في ذلك هو استبطاء المشركين لهذا اليوم, الأمر الذي دفعهم إلى إنكار

---

[٦٣] م.ن: ١٥٤/٤
[٦٤] سورة سبأ: ٣٠
[٦٥] الكشاف: ٥٧٧/٣, ينظر انوار التنزيل: ٢٤١/٤, ينظر مدارك التنزيل: ٥٢/٣
[٦٦] الكشاف: ٥٧٧/٣

البعث وهو مرهون بيوم الحساب, أو يوم العرض على الله, في قوله تعالى: (وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ۚ أُولَٰئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ..).[٦٧]

وقوله تعالى: (وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ ۚ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَنْ يُنَزِّلَ آيَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ).[٦٨]

إنَ المتأمل في سياق هذه الآية المباركة, يستشعر شكًا في قدرة الله, وهذا ما حصل لمشركي مكة عندما شكَوا بنبوة محمد (ﷺ), وأرادوا عن طريق أراجيفهم أن يجدوا منفذًا للنيل من رسالته, لذلك طلبوا من الرسول محمد (ﷺ) أن ينزل الباري ـ عزَ وجل ـ معجزة, لتكون برهانًا على صدق نبوته, فجاء النقض لما اكتن في خاطرهم من خبث, قال تعالى: (قل إنَ الله قادر على أن ينزل), وفي هذا القول دحض لفكرتهم ونقض لها, بدليل أنَ هناك كثيرًا من المعجزات نزلت على نبينا محمد (ﷺ) ومنها القرآن, إلا أنَهم لم يصدقوا بذلك, فجاء الرد (ولكن أكثرهم لا يعلمون) " أي لا يعلمون أنَ إ نزالها ستجلب لهم البلاء؛ لأنَه لو أنزلها وفق ما طلبوا, ثم لم يؤمنوا, لعاجلهم بالعقوبة بعذاب الاستئصال, كما فعل بالأمم السابقة".[٦٩]

الملاحظ أنَ هذه الآية تمثل شبهة من شبهات منكري نبوة الرسول محمد (ﷺ), وقد ساهم التضافر السياقي القائم على (الرجوع) والإستدراك إلى نفي هذه الشبهة, إذ إنَ المشركين في قولهم (لو لا نزل..) من باب الإنكار, بمعنى أنَه لا يمكن للباري ـ حاشا لله ـ أن ينزل على نبيه آية معجزة قاهرة, فجاء الرد: " قل إنَ الله ".

---

[٦٧] سورة هود: ١٨
[٦٨] سورة الانعام: ٣٧
[٦٩] صفوة التفاسير: ٣٣١/١

وفي هذه المسألة جملة توجيهات أقرها الرازي في تفسيره, في أثناء وقوفه على حجج المشركين ولجاجهم منها " أنَه لو كان محمد (ﷺ) قد أتى بمعجزة لما صح أن يقول أولئك الكفار (لو لا نزل عليه آية), ولما قال: (إنَ الله قادر على أن ينزل آية)".[٧٠]

هذه المسألة لم يتركها الرازي غفلًا, بل أجاب قائلا: " والجواب عنه: أنَ القرآن معجزة قاهرة وبينة باهرة, بدليل أنَه (ﷺ) قد تحداهم به فعجزوا عن معارضته, وذلك يدل على كونه معجزًا, بقي أن يقال: فإذا كان الأمر كذلك فكيف قالوا: (لو لا نزل عليه آية..) فالجواب عنه ومن وجوه:

الوجه الاول: لعل القوم طعنوا في كون القرآن معجزًا على سبيل اللجاج والعناد.

الوجه الثاني: أنَهم طلبوا معجزة قاهرة من جنس معجزات سائر الأنبياء.

الوجه الثالث: أنَهم طلبوا مزيد الآيات والمعجزات على سبيل التعنت.

الوجه الرابع: أن يكون المراد ما حكاه الله عن بعضهم في قوله: (اللهم إن كان هذا هو الحق فأمطر علينا حجارة)[٧١] ".[٧٢]

يتضح لنا عن طريق العقل الحجاجي الذي عمد إليه الرازي أنَ تعنت المشركين وعنادهم هو الذي قادهم إلى هذه الإنكار والطلب, ولم يدركوا تمامًا حقيقة ما يحيط بهم من معجزات, بدءًا من خلق الإنسان وتكوينه, ونسيج هذا الكون البديع من سماء من غير عمد, وأرض, وجبال, وأنهار ..الخ.

ولكن يبدو أنَهم في طلبهم هذا يرومون معجزة حية, وذلك كلُه نابع من بعدهم عن الله وجحودهم لنعمة ظاهرها وباطنها, ولكن اللطف الرباني أرجأ تلك المعجزات؛ لأنَها " توجب الزيادة في عذابهم, لكثرة تكذيبهم, فإن قيل إنَ: فهذه الآية لا تدل على أنَ الله لم ينزل عليهم آية تقودهم

---

[٧٠] التفسير الكبير: ٥٢٢/٢
[٧١] سورة الانفال: ٣٢
[٧٢] تفسير الكبير: ٥٢٢/٢

إلى تصديق فلم يلزمهم الإيمان قيل: هذا خطأ؛ لأنَ ما اظهره الله من آيات الدالة على صدق رسوله وصحة نبوته أظهر من أن يخفى ".[٧٣]

وقوله تعالى: (لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ...).[٧٤]

يكمن (الرجوع) في سياق هذه الآية المباركة في ظن بعض الجاهليين من أنَ الرسول (صلى الله عليه وسلم) مكلف بهداية الناس, فجاء الترجيع (ليس عليك هداهم), بمعنى أنَه غير مؤاخذ بجريرة من لم يهتد, إذ إنَ واجبه (ﷺ) التبليغ, فجاء الإستدراك مبينًا أنَ الهداية مرهونة بالله ـ جل في علاه ـ (يهدي لنوره من يشاء)[٧٥]. فجاء الإستدراك (لكن) بعد النفي (ليس عليك), ليؤكد المهمة الموكلة بالنبي محمد (ﷺ), وهي تبليغ الرسالة, ويدفع توهم من يظن أنَ واجب الأنبياء الهداية, ويعلم أنَ مهمتهم إبلاغ ما تكلفوا به, بغية ترسيخ مضمون رسائلهم في أذهان أقوامهم, لتكون سبيلًا يفضي إلى هدايتهم, علمًا أنَ كثيرًا من المشركين يعلمون تمام العلم بهذه التعاليم, إلا أنَ الله أصم آذانهم عن مسامع آياته وتدبر معانيها, ويجعل غشاوة على عينيه, لذا قال: (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ).[٧٦] والكافر يوم القيامة يحاجج ربَه قائلا: (قال رب لما حشرتني اعمى وقد كنت بصيرا, قال كذلك اتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى).[٧٧]

قوله تعالى: (إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ).[٧٨]

بسط الطاهر بن عاشور القول في الآية قائلا: " والخطاب في (ليس عليك هداهم) ظاهره أنَه خطاب للرسول على الوجه الاول.. ويجوز أن يكون خطابًا لمن يسمع على الوجه الآتي في الضمير.. وعلى في قوله: (عليك) للإستعلاء المجازي.. والمعنى ليس ذلك بواجب على الرسول,

---

[٧٣] النكت والعيون: ١١٠/٢ ــ ١١١
[٧٤] سورة البقرة: ٢٧٢
[٧٥] سورة النور: ٣٥
[٧٦] سورة البقرة: ٦
[٧٧] سورة طه: ١٢٥ ــ ١٢٦
[٧٨] سورة لقمان: ٧

فلا يحزن على عدم حصول هداهم؛ لأنَه أدى واجب التبليغ.. وتقديم الظرف وهو (عليك) على المسند عليه وهو هداهم إذا أجري على ما تقرر.. من أنَ تقديم المسند الذي حقه التأخر يفيد قصر المسند إليه إلى المسند, وكان ذلك في الإثبات بينًا لا غبار عليه نحو (لكم دينكم ولي دين)[٧٩] ".[٨٠]

هنا تكمن فاعلية التضافر السياقي من رجوع واستدراك, وتقديم وتأخير, إذ إنَ هذه الأدوات ساهمت في بيان حقيقة المهمة الموكلة بالرسول (ﷺ), فكان هذا الإنكار وعدم الهداية إلى سبيل الإسلام القويم مثار حزن الرسول (ﷺ), عليه آثر الباري ـ عزَ وجل ـ إدخال السكينة إلى قلبه والأنس إلى خاطره, كونه ذا مكانة مرموقة عند خالقه, لذلك خاطبه قائلا: (فلعلك باخع نفسك على آثارهم ان لم يؤمنوا بهذا الحديث اسفا).[٨١] فأمر الهداية مرهون بالله, فهو يهدي برحمته من يشاء, فهو القائل: (فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ۖ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ).[٨٢]

وقوله تعالى: (إِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ۗ أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ). [٨٣]

الملاحظ أنَ بؤرة السياق تدور حول فكرة (الرجوع) الكامنة في ذهن المشركين في قوله تعالى على لسانهم: (بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا), إذ إنَ المشركين نهوا عن مخالفة الوحي والقرآن, ودعاهم ربُ العزِة إلى اتباع ما أنزل على النبي محمد (ﷺ), ويتركوا الضلال والفسق والفجور, إلا أنَهم أصروا على عنادهم وجبروتهم, فكان هذا ردهم.

ومما تجدر الإشارة أنَ جمالية التضافر السياقي بين (الرجوع) و (الإستدراك) ساهما في تأكيد قصور عقول المشركين, وبطلان حجتهم القائمة على أساس أنَهم ألفوا آباءهم على هذه الشاكلة, ولكنهم نسوا أنَ آباءهم " ليس لهم عقل يردعهم عن الشر, ولا بصيرة تنير لهم الطريق,

---

[٧٩] سورة الكافرون: ٦
[٨٠] التحرير والتنوير: ٧٠/٣, وينظر تفسير المنار: ١٣٦٤/١
[٨١] سورة الكهف: ٦
[٨٢] سورة فاطر: ٨
[٨٣] سورة البقرة: ١٧٠

الإستفهام للإنكار والتوبيخ, والتعجب من حالهم ".[٨٤] فالنقض كامن في قصور عقول آبائهم وعدم هدايتهم إلى ما يوجههم الوجهة الصحيحة[٨٥]؛ لأنَ الأبناء احتجوا في عدم هدايتهم إلى ما وجدوا عليه آباءهم, فكان هذا الرد يمثل رجوعًا.

إنَ إصرارهم على اتباع ما ألفوا عليه آباءهم نقضه الباري ـ عزَ وجل ـ وأبطله, كونه يمثل ضلالة وخروجًا عن جادة الصواب؛ لأنَ معتقدهم لم يقم على حجة أو دليل يؤكد صحة ذلك, لذلك فالقرآن الكريم " يطلب من هؤلاء المقلدين أن يحاكموا تقاليدهم إلى ميزان العقل, إن كانت لديهم عقول, إلا أنَ القوم رفضوا توجيهات القرآن الكريم, واستمروا على تعصبهم, الأمر الذي جعل القرآن ينكر عليهم, ويتعجب من فعلهم ".[٨٦]

النظرة الفاحصة في سياق الآية يشير إلى عمق التضافر بين (الرجوع) و (الإستدراك) اللذين ساهما في الإبانة عن حقيقة المشركين القائمة على التقليد الاعمى لمن سبقهم, مما يدل على أنَ أهل الجاهلية كانوا مقيدين بربقة التقليد " لا

يحكمون لهم رأيًا, ولا يستعملون نظرًا, ولا يشغلون فكرًا, فلذا تاهوا في أودية الجاهلية, وقضوا أعمارهم في الضلالة... ومن خصالهم الإحتجاج بما كانت عليه القرون السالفة من غير تحكم للعقل ولا أخذ بالدليل الصحيح ".[٨٧]

ما تم ملاحظته في سياق الآية الإلتفات إلى الغائب " للنداء على ضلالهم؛ لأنَه لا ضال أضل من المقلد, كأنَه يقول للعقلاء: انظروا إلى هؤلاء الحمقى ماذا يقولون"[٨٨], فضلًا عن أنَ الإلتفات أفاد المبالغة في بيان ضلالهم.[٨٩] فقولهم: (بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا). فيه مبالغة في التيه والإصرار على الضلالة, والدليل على ذلك أسلوب (التبكيت)[٩٠] في قوله تعالى: (أو لو كان

---

[٨٤] صفوة التفاسير: ٩٦/١

[٨٥] ينظر استخراج الجدال من القرآن: ١١٤

[٨٦] منهج القرآن الكريم في دعوة المشركين: ٤٨٤/١

[٨٧] غاية الاماني في الرد على النبهاني: ١٨٣/٢, وينظر فصل الخطاب في شرح مسائل الجاهلية: ٢١٣

[٨٨] الكشاف: ٢١٣/١

[٨٩] ينظر التفسير الكبير: ٨٨/٥

[٩٠] وهو كالتقريع والتعنيف, (بكته) بالحجة تبكيتا غلبة, ذكره الزركشي ضمن استفهام التبكيت, ينظر البرهان في علوم القرآن: ٣٢٨/٢

آباؤهم يعقلون), وفي ذلك تقريع وتوبيخ لما آلو إليه من فساد معتقدهم وحرمان أنفسهم من المنهج القويم, لذلك جاء الخطاب بصيغة الإستغراب من فعلهم والتعجب من حالهم, فقد " تشبثوا بعد مخالفتهم ما ألفوا عليه آباءهم, وأعرضوا عن الدعوة إلى غير ذلك دون تأمل ولا تدبر, بل إضراب إبطال, أي أعرضوا عن قول الرسول: (اتبعوا ما انزل الله), إضراب إعراض بدون حجة ".[٩١] بمعنى أنَ قوله تعالى: (أو لو كان آباؤهم), هو الرد على قولهم: (بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا), " فإنَ المتكلم لما حكاه عنهم رد

قولهم هذا باستفهام يقصد منه الرد ثم التعجب, فالهمزة مستعملة في الإنكار كناية وفي التعجب إيحاء, والمراد بالإنكار الرد والتخطئة لا الإنكار بمعنى النفي :.[٩٢]

أبان الدكتور أحمد بدوي عن فاعلية الإستفهام التهكمي قائلًا: " في قوله سبحانه: (وإذا قيل لهم..), وإذا كان القرآن الكريم يقصد من الهجاء ذم الفعل للتنفير منه, فإنا نراه يتبع الهجاء بما يستخلص منه من عظة حينًا, ومن أمر يجب اتباعه حينًا آخر ".[٩٣]

وقوله تعالى: (أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ ﴿٣﴾ بَلَىٰ قَادِرِينَ عَلَىٰ أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ).[٩٤]

نجد أثر (الرجوع) بينًا, لاسيما عندما نقض الباري ـ عزَ وجل ـ ما قاله المشركون وأثبت عكس ما اعتقدوه من أن البعث والنشور لا وجود لهما؛ لذلك جاء الرد بـ (بلى) وهو تحد للكافرين المنكرين لقدرة الله على بعث الحياة من جديد في الإنسان بعد مماته, فأوجبت (بلى) مما بعد النفي, بمعنى " بلى نجمعها ونحن قادرون على أن نعيد أطراف أصابعه التي هي أصغر أعضائه, وأدقها أجزاء, وألطفها التئاما, فكيف بكبار العظام ".[٩٥]

---

[٩١] التحرير والتنوير: ١٠٦/٢
[٩٢] التحرير والتنوير: ١٠٦/٢
[٩٣] من بلاغة القرآن: ٢٧٣
[٩٤] سورة القيامة: ٣ ــ ٤
[٩٥] صفوة التفاسير: ١٤٢٨/٣

إنَ هذا الإنكار للبعث والنشور متأت من عدم درايتهم بقدرة الله وعظيم معجزاته, فهو القائل: (كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَا).[٩٦]

وقوله تعالى: (أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ ۚ فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا ۖ قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ).[٩٧] وقوله تعالى: (كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ)[٩٨].

كلها دلائل على عظم سلطانه وجليل قدرته التي أعجزت العلماء وأقروا بوحدانيتة, إلا أنَ المشركين كلَهم نفوا هذه المعجزات وأبانوا عن عجز الخالق عن جمع هذه العظام البالية وإعادتها للحياة مرة أخرى, لذلك جاء الرد عليهم " وذلك أنَهم ظنوا أنَ الله لا ينشر الموتى, ولا يقدر على جمع العظام البالية, فقال: (بلى) ما علموا أنا نقدر على رد السلاميات على صغرها ".[٩٩]

ولم يكن الأمر عند الإستدراك, بل ساهم الإستفهام الإنكاري في قوله: (أليس), في بيان الصيغة الملائمة لخطاب المشركين, وهي صيغة التهكم والتقريع والتوبيخ, لأنَ ظنهم قائم على سفاهة عقولهم وقصور فكرهم, وعدم اعتبارهم لخلق الله وعظيم صنعه, ثم يأتي الإستفهام التقريري: (ألن نجمع عظامه), " والمعنى أنَ الكافر ظن أنَ العظام بعد تفرقها وصيرورتها ترابًا واختلاط تلك الأجزاء بغيرها بعدما نسفتها الرياح وطيرتها في أباعد الأرض لا يمكن جمعها مرة أخرى ".[١٠٠] فكان الرد الرباني دليلا على القدرة؛ إذ إنَ (بلى) بعد النفي لنقض ما نفوه وإثبات القدرة الربانية, وكأنَه قيل: بلى نجمعها.[١٠١]

أما قوله: (بلى قادرين) فيه وجهان:

الوجه الاول: وهو المشهور: أنَه حال من الضمير في نجمع العظام قادرين على تأليفها وإعادتها إلى التركيب الاول... وها هنا كونه تعالى جامعًا للعظام يستحيل وقوعه إلا مع كونه قادرًا.

---

[٩٦] سورة الانبياء: ٥١
[٩٧] سورة الاسراء: ٥١
[٩٨] سورة الاعراف: ٢٩
[٩٩] تأويل شكل القرآن: ٢٠٦, وينظر فتح القدير: ٤٠٣/٥
[١٠٠] التفسير الكبير: ٧٧٢//٣٠
[١٠١] ينظر م.ن: ٧٧٢/٣٠

الوجه الثاني: أنَ تقدير الآية على الإبتداء أي كنا قادرين, فوجب أن نبقى قادرين على تلك التسوية في الإنتهاء.[١٠٢]

ومما تجدر الإشارة اليه, أن الله قد آثر البنان من دون سائر العظام, وهذا الاختبار لم يكن اعتباطًا, وإنَما ينطوي على دلالة عظيمة, يمكن تلخيصها في الوجهين الآتيين:

أولهما: إنَما خص البنان بالذكر؛ لأنَه آخر ما يتم خلقه, فكأنَه قيل: نقدر على ضم السلاميات على صغرها ولطافتها بعضها إلى بعض من دون نقصان ولا تفاوت.[١٠٣]

ثانيهما: بما فيها من غرابه الوضع, ودقه الصنع؛ لأنَ الخطوط والتجاويف الدقيقة التي في أطراف أصابع الإنسان لا تماثلها خطوط أخرى في إصبع شخص على وجه الارض, لذلك يعتمدون على بصمات الأصابع في تحقيق شخصية الانسان.[١٠٤]

وقوله تعالى: (أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ).[١٠٥]

في هذه الآية المباركة نقض لما رسخ في ذهن المنكرين للبعث والنشور فجاءت المحاجة العقلية لتبرهن لهؤلاء المنكرين وتدحض فكرتهم القائمة على الإنكار, من أنَ الله ـ جل في علاه ـ الذي خلق السموات والأرض من غير مثال سابق.. ولم يكل أو يتعب, أليس بمقدوره أن يحيي الموتى ويعيدهم إلى الحياة تارة أخرى, لذلك جاء الرد مستدركًا لما قاله المشركون بـ (بلى) المقررة لإحياء الموتى وإعادة تركيب الإنسان من جديد من أصغر شيء في جسمه إلى أكبر عضو, فجاءت (بلى) لتبطل وتقرر النقيض لما رسخ في عقول المشركين, بمعنى أنَ الله قادر على إحياء الموتى, لذلك ذيلت الآية الكريمة تذييلًا خرج مخرج المثل (إنه على كل شيء قدير) ليؤكد قدرته.

---

[١٠٢] ينظر التفسير الكبير: ٧٧٢/٣٠
[١٠٣] ينظر م.ن: ٧٧٢/٣٠
[١٠٤] ينظر صفوة التفاسير: ١٤٢٨/٣, وينظر مناهل العرفان في علوم القرآن: ٢٧/١
[١٠٥] سورة الاحقاف: ٣٣

وما تم ملاحظته أيضًا ورود مؤكدين في سياق الآية, لدفع إنكار وتوهم من أنَ الله غير قادر على إحياء الموتى وإعادة تركيبهم من جديد, الأمر الذي اقتضى أن يأتي بأكثر من مؤكد, ليثبت حقيقة غائبة عن فكر المشركين. إذ إنَ (الرجوع) القائم على نقض فكرة المشركين أبان عن قدرة الله وتمكنه, فإنَ إثبات قدرته لم يكن أمرًا اعتباطيًا, بل لإقناع المشركين الذين غشيتهم الضلالة وأعمت أبصارهم الخرافات التي يؤمنون بها.

وقوله تعالى: (أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ ۚ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ).[١٠٦]

تحمل الآية المباركة في طياتها عظة وعبرة لمن يظن أنَ الله غير قادر على إعادة الحياة لخلقه يوم البعث, لذلك جاءت هذه الآية ردًا على (أبي بن خلف) الذي حمل عظمًا فتته أمام رسول الله (ﷺ), محاولة منه استفزاز الرسول ودعم نظرته الفاسدة والمنكرة لإعادة الحياة من جديد, فقال ساخرًا: " أتزعم يا محمد أن يحيينا بعد أن نصبح رفاتًا مثل هذا؟ فقال (ﷺ): نعم يبعثك ويدخلك النار ".[١٠٧] نسي هذا الكافر قوله تعالى: (وضرب مثلا ونسي خلقه).[١٠٨] وقوله تعالى: (قل يحييها الذي أنشأها اول مرة).[١٠٩]

لم يدرك هذا الكافر الذي خلقه الله من مضغة مخلقة ومن جيفة أن يصنع منه إنسانًا متكامل الأعضاء, كما هو الحال في هذا المشرك.

يتضح لنا أنَ (الرجوع) يكمن في نقض ما اكتن في فكر هذا المشرك, من انَ

الله ليس بمقدوره أنَ يعيد تركيب هذا الإنسان من جديد بعد أن يصبح رفاتًا, لذا قال: (بلى وهو الخلاق العليم), فجاءت هذه الآية ردًا ونقضًا لما استبعده هذا الكافر.

---

[١٠٦] سورة يس:٨١
[١٠٧] صفوة التفاسير: ٢٢/٣
[١٠٨] سورة يس: ٧٨
[١٠٩] سورة يس: ٧٩

ينطوي الخطاب القرآني على تبكيت وتقريع وسخرية؛ لأنَ الذي قدر على البداءة قادر على الإعادة, فقد جاء التذييل الذي لم يخرج مخرج المثل: (وهو الخلاق العليم), ليؤكد عظيم صنعه.

إنَ النظرة الفاحصة في سياق هذه الآية تبرز فاعلية التضافر السياقي الذي ساهم في إبراز المعنى وتكثيفه, فقوله: (أوليس الذي خلق) هو استفهام إنكاري وتقريري لما بعد النفي, إذ قرر الخطاب القرآني حالة الخلق وعرضها على المشركين, ليكونوا مدركين لصنع الله الذي خلق السموات من غير عمد, والارض, وهي حجج دامغة لمن يظن بعجز الله, كذلك قوله: (أليس..) " استئناف مسوق من جهته تعالى لتحقيق مضمون الجواب الذي أمر (ﷺ) بان يخاطبهم بذلك ويلزمهم الحجة للإنكار والنفي ".[١١٠] كذلك نجد التضافر السياقي الحاصل بين (الرجوع) و(الإستدراك) في قوله: (بلى) لما بعد النفي " عطف على ما يقيده الإيجاب, أي بلى هو قادر على ذلك, وهو المبالغ في الخلق والعلم كيفًا وكمًا ".[١١١]

ومما تجدر الإشارة إليه هو العطف الحجاجي الكامن في قوله: (أوليس..), فقد " عطف هذا القرير على الاحتجاجات المتقدمة على الإنسان المعني, من قوله تعالى: (أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ)[١١٢], ذلك أنَه لما تبين الإستدلال بخلق الأشياء على إمكان خلق أمثالها ارتقى في هذه الآية إلى الإستدلال بخلق مخلوقات عظيمة على إمكان خلق ما دونها, وجيء في هذا الدليل بطريقة التقرير الذي دل عليه الإستفهام التقريري ".[١١٣]

هنا نلاحظ فاعلية التضافر السياقي في تقرير حالة غفل عنها المشركون, إذ إنَ تكاتف هذه الأدوات مجتمعة أبان عن القصد وعرض الحجة التي من شأنها إرشاد المشركين إلى حقيقة ما يعتقدونه إلى فساد نظرهم وقصور فهمهم.

---

[١١٠] روح المعاني: ٥٦/٢٣
[١١١] م.ن: ٥٦/٢٣
[١١٢] سورة يس: ٧٧
[١١٣] التحرير والتنوير: ١٨/٢٣

وقوله تعالى: (قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ).[114]

يتضح (الرجوع) في نفي تكذيب المشركين للرسول (ﷺ)، إذ أثبت الخطاب القرآني حزن الرسول إزاء ما قيل حوله من أنَه شاعر, أو مجنون, أو ساحر, الأمر الذي اقتضى نقض هذه الأقاويل في قوله تعالى: (فإنَهم لا يكذبونك), بمعنى " أنَهم في دخيلة نفوسهم لا يكذبونك, بل يعتقدون صدقك ولكنهم يجحدون عن عناد ".[115]

ومما يعضد هذا (الرجوع) الإستدراك في قوله: (ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون), إذ أورد القرآن الكريم أدلة على جحود من سبقهم من الأمم, في قوله: (ولقد كذبت رسل من قبلك)[116], وهذا من باب الإستئناس والتخفيف من وطأة الحزن على رسول الله (ﷺ), وبيَن أنَ أمر تكذيب الأنبياء داء قديم, فلا تأس عليهم, فقد نفي القرآن الكريم افتراءاتهم على سوله الكريم, في قوله تعالى: (وما علمناه الشعر وما ينبغي له)[117], وقوله تعالى: (وما هو بقول شاعر قليلا ما تؤمنون)[118], وقوله تعالى: (وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ)[119]

إنَ التوكيد بـ (إن) و)اللام) فيه إشارة إلى شدة تكذيب المشركين للرسول (ﷺ), فضلًا عن شدة حزن الرسول, فاقتضى المقام أن يؤكد الكلام بأكثر من مؤكد واحد.

فترى الباري ـ عزَ وجل ـ لم يترك أمر تكذيب المشركين للرسول (ﷺ), بل عزز ذلك بآيات تدعو الرسول ألا يأبه لما يقولون, وهي من باب إدخال السكينة على قلبه, من ذلك قوله تعالى:

---

[114] سورة الانعام: ٣٣
[115] صفوة التفاسير: ٣٢٩/١
[116] سورة الانعام: ٣٤
[117] سورة يس: ٦٩
[118] سورة الحاقة: ٤١
[119] سورة الحاقة: ٤٢

(وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴿١٠﴾ وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا).[١٢٠], وقوله تعالى: (فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ).[١٢١]

فقد أبان الغرناطي (ت ٧٠٨هـ) عن جمالية التعبير القرآني قائلًا: " فتأمل عظيم هذا التأنيس وما تضمنه قوله: (فإنَهم لا يكذبونك) من وضوح صدقه (عليه السلام) وتصديقه, فلم يبق إلا الحسد, وقصد إطفاء نور الله.. فلما قاله تأنيسًا وتكفلًا لحفظه إياه: (ولا يحزنك قولهم) اتبع ذلك سبحانه وتعالى بإعلامه إياه أنَ العزة له ﷻ ".[١٢٢]

الملاحظ أنَ فاعلية (الرجوع) قد أتت أكلها عن طريق التضافر مع جملة فنون ساهمت جميعها في بيان الموقف الواهن للمشركين, والموقف المؤازر من لدن الباري ـ عزَ وجل ـ عندما نقض الفكرة التي آمن بها المشركون في قوله: (فإنهم لا يكذبونك), ومما زاد المعنى توكيدًا الإستدراك في قوله: (ولكن الظالمين..) إشارة إلى اعتياد المشركين هذا الفعل منذ أن بعث الرسل والأنبياء.

وقوله تعالى: (وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا...).[١٢٣]

يبدو أنَ (الرجوع) في سياق هذه الآية يكمن في نفي أن يكون سليمان (عليه السلام) ساحرًا كما زعمت اليهود[١٢٤], وأثبت أنَ الشياطين هم الذين علموا الناس السحر, إذ ساهم (الإستدراك) في قوله: (ولكن الشياطين) الذي جاء بعد النفي لدفع هذه التهمة عن سليمان (عليه السلام), أي ما كان سليمان ساحرًا.[١٢٥]

الملاحظ في سياق هذه الآية المباركة دقة اختيار المفردة, لاسيما في قوله: (اتبعوا) للدلالة على الإنقياد الأعمى لوساوس الشياطين, الأمر الذي دفعهم إلى ترك ما أنزل عليهم في التوراة,

---

[١٢٠] سورة المزمل: ١٠ ــ ١١
[١٢١] سورة الاحقاف: ٣٥
[١٢٢] ملاك التأويل: ٢٤٤
[١٢٣] سورة البقرة: ١٠٢
[١٢٤] ينظر الجديد في شرح كتاب التوحيد: ٢١٨
[١٢٥] ينظر بحر العلوم: ١٠٤/١

فضلًا عن صيغة المضارع (تتلو), للإشارة إلى أنَ وساوس الشياطين لا تنتهي, فهي حاضرة في كل زمان ومكان, أضف إلى ذلك التضمين النحوي للحرف (على) الذي تضمن معنى (في) أي في زمن ملك سليمان, ليبيَن لنا أنَ هذه الدعوات الباطلة كانت قائمة في ذلك الزمن وإلى يومنا هذا.

ومن جماليات التضافر السياقي في هذه الآية, قوله: (وما كفر سليمان) لإثبات حقيقة سليمان (عليه السلام) وإبطال زعم اليهود الذين أقبلوا على تعلم السحر, "فغشت الملامة لسليمان, فلم تزل هذه حالهم حتى بعث الله محمدا (ﷺ) وانزل الله عذر سليمان على لسانه واظهر براءته مما رمي به, فقال: (واتبعوا ما تتلوا الشياطين)."[١٢٦]

وفي قوله تعالى: (وما كفر سليمان) أيضًا إحتراس, لدفع التوهم من أنَ سليمان لم يكن ساحرًا من جانبين:

الاول: من باب تنزيه سليمان (عليه السلام), كونه لم يتعلم السحر, وهذا من فعل الشياطين التي تسعى عن طريقه التفريق بين الناس, وبث العداوة والبغضاء بينهم, وهذا الفعل لا يليق بنبي الله سليمان (عليه السلام).[١٢٧]

الآخر: هو نابع من " عظمة القرآن أنَه يأمر الخلق بالإيمان بالرسل, ويذكرهم بأوصافهم الجميلة وينزههم مما قاله الناس فيهم مما ينافي رسالتهم ".[١٢٨]

وقوله تعالى: (وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَهُمْ ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۗ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۗ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ..).[١٢٩]

لاشك أنَ (الرجوع) تجسد في نقض الفكرة الكامنة في ذهن بعض الناس من أنَ الإمساك بالمال وعدم إنفاقه في سبيل الله يمثل ذخيرة للإنسان, ومنفعة له في قادم آيامه, ونسوا قوله تعالى: (مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ ۖ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ..).[١٣٠]

---

[١٢٦] اسباب نزول القرآن: ٣٢
[١٢٧] ينظر تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان: ٦١
[١٢٨] تيسير اللطيف المنان في خلاصة تفسير القرآن: ٤٦
[١٢٩] سورة آل عمران: ١٨٠

ولكن الله نفى ذلك وأبان أنَ البخل شر وليس خيرًا, بل يكون عقابه وخيمًا يوم القيامة, ومما يعضد ذلك الإستدراك في قوله: (بل هو شر لهم), فقد أكد الخطاب القرآني هذا العذاب في قوله تعالى: (وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ ۖ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ).[١٣١]

أبان الباري ـ عزَ وجل ـ شدة وعيده لمن يبخل ببذل المال في سبيله, بغية لفت نظر البخلاء إلى خطورة فعلهم والجزاء الذي سيلاقونه يوم القيامة, لذا جاء الخطاب القرآني ليبيَن " حال البخل وخامة عاقبته وتخطئته لأهله.. وبيان حال الإملاء وإيراد ما بخلوا به بعنوان إيتاء الله تعالى إياه.. للمبالغة في بيان سوء صنيعتهم, فإنَ ذلك موجبات بذله في سبيله.. والتنصيص على شريته لهم مع إفهامها في نفي خيريته للمبالغة في ذلك ".[١٣٢]

نفهم من ذلك أنَ (الرجوع) في تضافره مع الإستدراك إشارة إلى شرية هذا الصنيع وسوء الإعتقاد القائم على النفع, بل أكد ضرورة البذل كونه يطهر النفس من الشح ويسد حاجة المحتاجين.

وقوله تعالى: (زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا ۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ ۚ وَذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ).[١٣٣]

يتضح لنا عن طريق تفحص السياق القرآني, أنَ فن (الرجوع) تجسد في نفي مزاعم الكفار في مكة ونقضها, لأنَ زعمهم قائم على نفي مسألة البعث من القبور بعد الممات, الأمر الذي اقتضى إثبات هذه المسألة ونفي ما رسخ في أذهانهم من أوهام, فجاء الإستدراك بـ (بلى) بعد

---

[١٣٠] سورة النحل: ٩٦
[١٣١] سورة التوبة: ٣٤ ــ ٣٥
[١٣٢] ارشاد العقل السليم: ١٢٠/٢٠
[١٣٣] سورة التغابن: ٧

النفي (لن يبعثوا) ليؤكد البعث من القبور يوم القيامة, فأقسم الرسول (ﷺ) بربه, لتأكيد البعث والنشور, ونفي مزاعمهم.

ابتدأت الآية بالفعل (زعموا) " والزعم القول الموسوم بمخالفة الواقع خطأ منه, فمنه الكذب الذي لم يتعمد قائله أن يخالف الواقع في ظن سامعه, ويطلق على الخبر المستغرب المشكوك في وقوع ما أخذ به... لكل شيء كنيته وكنية الكذب زعموا.. فبين الزعم والكذب عموم وخصوص وجهي ".[١٣٤]

ومما تم ملاحظته أيضًا القسم في قوله: (وربي لتبعثن), وقوله: (ثم لتنبؤن), ليؤكد البعث, إذ إنَ الخطاب القرآني عندما رأى اشتداد الإنكار الناشئ عن عدم إدراكهم لحقيقة البعث, أكد الباري ـ عزَ وجل ـ الأمر الذي جعل الكلام موجهًا إلى النبي (ﷺ), " والقرينة قوله: (قل بلى), وليس هذا الإظهار في مقام الإضمار ولا من الإلتفات بل هو ابتداء غرض مخاطب به غير من كان الخطاب جاريًا معهم ".[١٣٥]لذلك جاء الرد الرباني: (قل بلى وربي) فالحرف (بلى) يجاب به الكلام المنفي لإبطال نفيه, فقد جاء هذا الحرف بعد النفي (لن يبعثوا) وكثيرا ما يأتي بعد الإستفهام الإنكاري.

إنَ مجيء الاستدراك بـ (بلى) يعدُ ردًا على المنكرين للبعث؛ لأنَ إنكارهم للأخرة ناشئ " عن عدم إدراكهم لحكمة الله تعالى وتقديره, فحكمته لا تترك الناس سدى.. لذلك فهم ينكرون مجيء الساعة التي وعد الله بمجيئها, والتي ينال فيها كل إنسان جزاء عمله ".[١٣٦]

وقوله تعالى: (تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ ۖ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ).[١٣٧]

المتأمل في سياق الآيتين؛ يجد (الرجوع) حاضرًا عندما قال الكفار: (بلى قد جاءنا), ثم رجعوا ليقولوا: (وقلنا ما نزل الله من شيء). إذ إنَ سؤال خزنة نار جهنم قائم على التقريع والتوبيخ بـ

---

[١٣٤] التحرير والتنوير: ٢٧٠/٢٨
[١٣٥] م.ن: ٢٨٠/٢٨
[١٣٦] مسلك القرآن الكريم في اثبات البعث: ٥١
[١٣٧] سورة الملك: ٨ ــ ٩

(ألم يأتكم), فكان الرد بـ (بلى), " وهذا السؤال زيادة لهم في الإيلام ليزدادوا حسرة فوق حسرتهم, وعذابًا فوق عذابهم".[١٣٨]

أبان (الرجوع) عن إنكارهم ما جاء به الرسل وتماديهم في التكذيب وإمعانهم في النكير؛ لذلك جاء الإستدراك بـ (بلى) ليجاب بهذا الحرف الكلام المنفي, وجاء هذا الحرف بعد الاستفهام الإنكاري (ألم يأتكم), بغية إبطال النفي.

ومما تم ملاحظته الدقة في اختيار المفردات, في قوله: (تكاد تميز), للإشارة إلى غيظ نار جهنم وضيقها على أعداء الله الذين لم يلتزموا بما تلي عليهم من آيات الله, فضلًا عن تكذيبهم الرسل, إذ إنَ إقرارهم في قوله: (ما نزل الله من شيء), يعدُ اعترافًا برسالة الرسل, ولكنهم كذبوهم وأنكروا رسالتهم, وهذا كما قال الرازي: " اعتراف بعدل الله, وإقرار بأن الله أزاح عللهم ببعثة الرسل الكرام, ولكنهم كذبوا الرسل, وقالوا: (ما نزل الله من شيء).[١٣٩]

أخلص إلى القول إنَ التضافر السياقي المؤازر لفن (الرجوع) ساهم في إبطال الحجج الواهية الناشئة عن عدم الإدراك الواعي لحقيقة الأمور, إذ إنَ الإستدراك هو الآخر برَز أمورًا كثيرة, كونه يأتي بعد النفي, بغية إبطال أو بعد الإستفهام الإنكاري من أجل إبراز المعنى المقصود.

---

[١٣٨] صفوة التفاسير: ١٣٦٧/٣

[١٣٩] التفسير الكبير: ٦٤/٣٠